

الحج الإبراهيمي والحد الجاهلي

تأليف: صادق أتينة وند
لآل رَسُولِ اللَّهِ بِالْحَيْفِ مِنْ مِني / و بالركن و التعريف و الجمرات
ديار علي و الحسين و جعفر / و حمزة و السجاد ذي الثفئات
و سبطي رسول الله و ابني وصيه / و وارث علم الله و الحسنات
"دعبل بن علي الخزاعي"

المقدمة:

إن أصول الحج الإبراهيمي: هي تلك التي شرعها الدين المبين، ومن الصعب الوصول عبر النصوص والوثائق الباقية - باستثناء القرآن الكريم - إلي شيء يمكنه رسم حقيقة تلك الأصول. ولكن في ضوء تعدد التفاسير، التي تقدمها المذاهب الإسلامية حول أداء الحج وفق نهج إبراهيم الخليل (عليه السلام) ، وكما يدعو إليه الدين المبين، وبالتحديد ما يتعلق بالنواحي السياسية والاجتماعية والتولي والتبري، نجد من المناسب البحث فيما وصل إلينا عن شعائر الحج الإبراهيمي ومناسكه، خصوصاً وأن هذه التفاسير لم تكن بمنأى عن التأثير بتقادم الأزمنة وهيمنة الأمويين والعباسيين، والأجواء السياسية والاجتماعية التي ترتبت علي سلطة كل منهما، علاوة علي انحياز بعض العلماء والفقهاء الذين عدوا أنفسهم مرتبطين بجهاز الحكم إبان العهدين الأموي والعباسي.

إن ما يمكنه تفصيل الحج الإبراهيمي، ونفخ الروح والمحتوي فيه، هو المضامين والمناسك، التي يجب دائماً التمسك بها واللجوء إليها، وبالخصوص الديني بالحج تحقيق صدور رؤية إبراهيم الخليل (عليه السلام) ومحمد الحبيب (صلي الله عليه وآله وسلم) . وإلا فإن التمسك الظاهري في إقامة المراسم والمواسم يذكر بالحج السهل الذي إياه أبوسفیان أيضاً. لأن الحج بالمعني العام لا يختص به الإسلام، إن ما أمر به الإسلام وأصر عليه، هو الحج الإبراهيمي من بين الحج الجاهلي والحج الحنيفي والحج الصابئي.

حج إبراهيم (عليه السلام) :

"والشائع في الأخبار والروايات والعربية القديمة أن الحج، علي زمن إبراهيم عليه السلام، كان يعني قصد كعبة مكة والطواف بالبيت والتلبية وقضاء بقية المناسك، ثم جاءت الوثنية بأصنامها وبيوتها وعباداتها فصار الحج يشملها أيضاً ١.

وَأَدْنَى فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢.

"أن إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) هما اللذان بنيا الكعبة بيت عبادة لله، وأن حرمة الكعبة ومنطقة مكة وتقاليد الحج وطقوسه المتنوعة في هذه المنطقة من سنن إبراهيم"

٣.

وقد إخذ الإقوام الآخرون - الذين عاشوا بألف سنة قبل ميلاد المسيح (عليه السلام) - بهذه السنة؛ فكانوا يراعون حرمة مكة والحرم.

يخمن خبراء الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد) والمتخصصون في الأديان، أن إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) عاشا نحو ألفي عام قبل الميلاد، وبذلك يكون قد مضى نحو ٤٠٠٠ قرناً علي الظهور الحديث للكعبة بالبناء الإبراهيمي.

الميلاد، عن الأنباط، أشار إلي الكعبة بقوله: "إنه مكان مقدس له حرمة وشهرة بين جميع العرب، هو مكة" ٤.

يعتقد بعض الباحثين، أن مفردة "مكورابا" (Macoraba) والتي تلفظ في اليونانية "مقوروبا" والتي أراد بها اليونانيون اسم مدينة، وتعني مكان التقرب لله، تعني مكة. معلوم أن كلمة "مكورب" هي مفردة دينية قديمة استعملت قبل ألف عام من تأسيس حكومة السبأ. وقد أشار بطلميوس (Ptolemy) الفلكي والجغرافي الذي عاش في القرن الثاني للميلاد إلى هذه المفردة^٥.

علي هذا الأساس يمكن القول: إن مفردة "مكة" تمثل صفةً ونعتاً لبيت الله ولا تعني اسماً خاصاً. لكنها أثر الاستعمال والشهرة حلت مكان الاسم، مثل القدس إذ حلت الصفة محل اسم العلم. وكلمة "بكة" تعادل "مكة"، فحسب رأي الدكتور جواد علي أن الكلمتين تمثلان تسميةً واحدةً، ففي لهجات القبائل تأتي الباء بدل الميم بالقلب والاببدال، وبخاصة في لهجات جنوب الجزيرة العربية^٦.

يرى بعض المحققين أن مفردة "بكة" تعني الوادي. إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدي للعالمين.

جاء في القاموس: "بكة" تقال لمكة، أو لما بين جبلتها؛ نري أن مفردة "بك" سامية قديمة، وكلمة "بقعاه" عبرية وتعني الوادي، وقد أطلقت علي الوادي الواقع بين لبنان الساحلي ولبنان الشرقي والذي أسماه الروم سورية المنخفضة.

"وإن مدينة بعلبك مشهورة، وهي من الكلمات المركبة تركيباً مزجياً من "بعل" [إله قديم] و"بك" [الوادي] ومعني بعلبك إله الوادي^٧: وهو نفس الاسم الذي أطلق علي هذه المدينة تيمناً بالهة الساميين المعروفة ويطلق اليوم علي هذا الوادي اسم البقاع، والذي يمر نهر الليطاني عبره.

أطلق القرآن الكريم علي مكة اسم "أم القري" ٨ و"قرية" ٩، قارنها بالطائف: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَي رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ١٠.

وقد ذكر أغلب المفسرين أن المراد من القريتين هما مكة والطائف^{١١}. وقال المسعودي في مروج الذهب: "وقد كان إبراهيم قدم إلي مكة وإسماعيل ثلاثون سنة حين أمره ببناء البيت"^{١٢}.

إن ما يسترعي الاهتمام من الناحية التاريخية، هو ما نقله مينغانا (Mingana) عن راهب سرياني يدعي نرساي (Narsai) بشأن نزاع أولاد هاجر في (بيت عرباه) في الحدود الشامية، وهذا الخبر يمثل أول نقل عن شخص من أهل الكتاب (توفي في سنة ٤٨٥ للميلاد) أفاد فيه بوجود قريش في شمال الجزيرة، وهو يتطابق مع ما أورده النسابون والأخباريون العرب، في إرجاع نسب قريش إلي إسماعيل (عليه السلام)^{١٣}.

جاء في الآيات (١٢٠-١٥٠) من سورة البقرة المباركة والتي استنكرت دسائس اليهود بين المسلمين بشأن تغيير القبلة من القدس إلي الكعبة، قوله تعالى: وان الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون^{١٤}.

وفيه إشارة قبل كل شيء إلي علم اليهود بأفضلية الكعبة وأقدميتها، كقبلة. مما يعني أنهم كانوا يقرون قبل ظهور الاسلام بفضائلها وسوابقها واتصالها بإبراهيم (عليه السلام) وقد حدثوا العرب بذلك.

لم يسجل التاريخ ما يقود إلي اليقين في الحجّ الابراهيمي الصحيح غير ما علمه القرآن الكريم.

والحجّ الجنيفي الذي يدّعي محاكاة حجّ إبراهيم (عليه السلام) فعلاوة علي أنه جعل ليقابل حجّ المشركين وعمل به في أجواء الشرك الجاهلي، فهو غير واضح، كما أن شبهة الشرك تكتنفه في بعض الحالات.

عندما نتعرّف علي الحجّ الجاهلي وحجّ المشركين، ونجري مقارنة بينهما، كي لا تتحرك - والعياذ بالله - تلك الرواسب الباقية في أذهان المسلمين، وتطرح مقابل الحجّ الابراهيمي الذي أمر به القائد الكبير للثورة ومؤسس الجمهورية الاسلامية في إيران سماحة الامام الخميني - قدسنا الله بسرّه العزيز - وأقيم للمرة الألي في هذا العصر.

لم يتفق المؤرخون السابقون علي رأي واحد بشأن دخول الشرك وانتشاره في الجزيرة العربية، فبعضهم مثل هشام الكلبي رأي في كتاب "الأصنام": " أن إسماعيل بن إبراهيم (صلي الله عليهما) لما سكن مكة وولد له بها أولاد كثير حتي ملأوا مكة ونفوا من كان بها من العماليق، ضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضاً، فتفسحوا في البلاد لالتماس المعاش.

وكان الذي سلّخ بهم إلي عبادة الأوثان والحجارة أنّه كان لا يظعن من مكة طاعن إلاّ احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابةً لمكة " ١٥.

وقد أدي هذا العمل علي المدى الطويل إلي نشوء صناعة الأصنام، وعبادتها وبالتالي ساد الشرك الجزيرة.

وكانوا في ديار الغربة يدورون حول هذه الأصنام، ويطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة. إلا أن هشام يضيف قائلاً: "وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة، ويحجون ويعتمرون، علي إرث إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) " ١٦.

وفي الأسباب الكامنة وراء الميل نحو الشرك وتغلّبه علي دين إبراهيم، رأي هشام أنّها تتمثل في توغلهم واهتمامهم الشديد بالأصنام، موضحاً أنّه رغم كل ذلك كانت ثمة بقايا مناسك من عهد إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) قام أهل الجاهلية بأدائها بعد أن مزجوها بتقاليد الشرك، فبدأ الحجّ الجاهلي بمعناه الدقيق من ذلك الحين:

" وفيهم علي ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) يتنسكون بها: من تعظيم البيت، والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف علي عرفة ومزدلفة، وإهداء البدن، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه " ١٧.

مناسك الحج في الجاهلية:

كان الحجّ في الجاهلية يبدأ من اليوم التاسع من شهر ذي الحجّة، عندما تشارف الشمس علي الغروب، وقبله يجتمع الناس لأغراض التجارة في سوق عكاظ خلال شهر ذي القعدة لمدة عشرين يوماً، يتوجهون بعد انقضائها إلي سوق المجنة حيث يمكثون فيه حتي نهاية الشهر وهم يمارسون معاملاتهم التجارية، وإذ هل هلال ذي الحجة انطلقوا إلي ذي المجاز ليواصلوا فيه البيع والشراء علي مدي ثمانية أيام، وفي اليوم التاسع ينادي المنادي فيهم: "ترووا بالماء لأنه لا ماء بعرفة ولا بمزدلفة".

وبهذه المناسبة سمي هذا اليوم بيوم التروية، وهو اليوم الذي ينتهي فيه موسم أسواق الحجّ الجاهلي ١٨.

في اليوم التاسع من ذي الحجّة يصل الحجاج إلي عرفة، ويرتدون اللباس الخاصّ بالحجّ كما أورد الجاحظ: " كانت سيماء أهل الحرم إذا خرجوا إلي الحِلّ في غير الأشهر الحرم، أن يتقلدوا القلائد ويعلقوا عليهم العلائق، فإذا أومّ أحدهم الحج، تزيا بزّي الحاج " ١٩.

الخطمي والآس والسدر ومادة صمغية علي شعر رأسه وذلك للحيلولة دون تسريحه ودون قتل القمل، وقد وصف امية بن أبي الصلت الحجاج الذين لتبدوا بقوله:

شاحينَ أباطهم لم ينزعوا تفتأولم يسئلوا لهم قُملاً وصئباناً ٢٠

المواقف:

الموقف الأوّل، هو عرفة كما ذكرنا إذ يصلونه في اليوم التاسع من ذي الحجة.

وقد ذكروا وجوهاً مختلفة بشأن اسم "عرفة" منها.

أن جبرئيل كان يطوف إبراهيم في المشاعر، ويعلمه المواضع وهو يقول: عَرَفْتُ، ومنها أن آدم وحواء بعد الهبوط عرف أحدهما الآخر في هذا المكان، ومنها أن الناس يتعارفون في هذا الموضوع ٢١.

قال ياقوت: "وقيل: بل سمّي بالصبر علي ما يكابدون في الوصول إليها، لأن العرف الصبر؛ ويقال: إن الناس يعترفون بذنوبهم في ذلك الموقف " ٢٢.

"ويقارن هوتسما (Houtesma) الوقوف بعرفات بوقوف اليهود علي جبل سيناء، حيث كان يتجلّي معبودهم بالبرق والرعد، وان كنا لا ندري شيئاً عن إله عرفات، ولربما كان نفسه إله المزدلفة " فزح " [إله البرق والعواصف والرعد والغيث] الذي عبده الأدميون من قبل ولم يبق من ظواهر عبادته بين الجاهلين إلا إشعال نيرانه بمزدلفة. " ٢٣.

وكان لكل قبيلة موقف خاص بها في عرفة، ولم يبق الآن إلا أسماء بعضها، لأن وحدة صفوف الحجاج في الاسلام دون تمايز، أدت الي اندثار أسماء تلك المواقف.

من المواقف الخاصة التي ما زالت باقية موقف نَفَعَة الخاص بقبيلة ربيعة والذي ورد في شعر لعمر بن قميئة:

و منزلة بالحج أخرجي عرفتها لها نفعاً لا يُستطاع بروحها ٢٤

كانت قريش وكذلك أهل مكة يرون أنفسهم أفضل من غيرهم من العرب، فيختارون موقفهم بالقرب من مكان الأضاحي في مزدلفة في موضع اسمه نَمرة.

وكانوا يعظمون جبل "إلال" في عرفة ويقسمون به، وقد ذكر في شعر النابغة في عدة أماكن، كذلك أورده طفيل الغنوي في شعره بقوله:

يزرن إلالاً لا ينصن غيره بكل ملب أشعث الرأس مُحرم ٢٥

وكانوا يطلقون علي الانتقال السريع من عرفة إلي مزدلفة تسمية الإفاضة أو الإجازة، وكان هناك أشخاص يتقدمونهم ليهدهم السبيل.

وروي ابن هشام في سيرته " كان الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر يلي الإجازة للناس بالحج من عرفة، وولده من بعده؛ وكان يقال له ولده صوفة " ٢٦.

وفي وجه التسمية قالوا: إن أمة عندما ربتطه بالكعبة وضعت عليه قطعة من الصوف.

ومما روي عن ابن عباس في الحج الإبراهيمي، أن النبي (صلي الله عليه وآله وسلم) منع من الحركة السريعة وأمر بالسكينة إذ قال (صلي الله عليه وآله وسلم) : " أيها الناس، عليكم بالسكينة، فإن البر ليس بالإيضاع " ٢٧.

ن كلاب، حيث

استمر هذا الأمر حتى ظهور الاسلام، ولعلّ الهدف من اضرام النيران هناك هو إرشاد الحجاج، إذ كان من الممكن أن يحل الظلام قبل أن يصلوا إلي المزدلفة ٢٨.

وكان الجميع يجتمعون في المزدلفة الواقعة بين عرفات ومنى، حتي قريش والمكيبون كانوا ينضمون إلي المجتمعين، وكانوا يمضون الليل بالدعاء والتلبية بانتظار طلوع الشمس، وكان البعض لجعلته يخاطب جبل ثبير الذي تشرق الشمس من خلفه بقوله: " أشرق ثبير، كيما نغير".

وتكون الافاضة في الحج الإبراهيمي من عرفة بعد الغروب، ومن مزدلفة قبل طلوع الشمس، خلافاً للحج المشركين.

وقد أشار أبو ذؤيب الهذلي إلى مبيت المشركين في مزدلفة، وانتقالهم منها إلى منى في شعر له وصف به حاجاً مشركاً أدي أعماله متعجلاً ليشتري العسل، إذ قال:

قَبَاتَ بجمحِ ثم تم إلي منيفاًصبح راداً يتبغي المزج بالسحل ٢٩

إنَّ التاريخ لا يحدِّثنا بشيءٍ عن سبب الاسراع في العبور من مزدلفة إلى محلّ الهدى بمنى، لكن بالإمكان الحدس بأنه كان للحصول علي مكان مناسب، أو للتعجيل في الهدى. وفي المزدلفة أيضاً كان الصوفة يقومون بالإضافة، التي كانت تتكفلها أسر أخرى من القبائل أيضاً.

موقف مني:

بعد وصولهم منى ينحر المشركون الهدى، ويستمر ذلك من الصباح حتي الغروب. وكانوا يرمون الحجارة في مكانين خاصين هما المحصب والجمار كي لا يمكن لأهل مكة أن يزرعوا شيئاً فيهما، ومعلوم أن هذه الأحجار يجب أن تكون كبيرة لتجعل الأرض غير صالحة للزراعة تماماً، فهي تتفاوت مع الأحجار الصغيرة التي تستعمل في الحج الابراهيمي لرمي الجمرات.

يبدو أن أهل الجاهلية يخرجون من الإحرام بعد النحر والرمي في منى، وهذا المفهوم يستفاد من شعر نقله الجاحظ في كتاب الحيوان لعبدالله بن العجلان.

بعد النحر يتوجه المشركون إلى الرمي، إلا أن هذا العمل منوط بإجازة الصوفة الذين يتكفلون أمر الافاضة من عرفة ومزدلفة، وأولئك لا يرمون حتي تتقرب الشمس من الغروب ٣٠.

ثمة بيت في كتاب المفضليات عن الشنفرى الشاعر الجاهلي الصعلوك، وردت فيه كلمة الجمار:

قتلنا قتيلاً مُهدياً يملبِّدُ جمار منى وسط الحجيج المصوّت ٣١

بعد الفراغ من الرمي، يحيسون الحجاج في العقبة، ولا يسمح لأحد بالحركة حتي يعبر الصوفة، الذين بعبورهم يتحرك الحجاج بعدهم.

وقد بين مرة بن خليف الفهمي، شوق الحجاج للحركة ومنع الصوفة لهم في هذا البيت من الشعر:

إذا ما أجازت صوفة النَّقبَ من منيولاح قنار فوقه سفَعُ الدم ٣٢

تبدأ مراسم الحج، قبل الغروب من اليوم التاسع من ذي الحجة، وبعد عرفة ومزدلفة وإشعال النار فوق جبل قزح، ونحر الهدى ورمي الجمرات، تنتهي عند الغروب، أي إنهم يكونون قد فرغوا من مراسم الحج في ليل العاشر من ذي الحجة، يبقى دخول مكة والطواف ثم يعود كل فرد إلى وطنه بعد أدائهما.

العروس، فقد

كان اليمينيون يضعون علي شعرهم الملبد الطحين أو مسحوق الحمص والسكر، ثم يلحقون، فيتساقط الطحين أو مسحوق الحمص فينتفع به الفقراء ٣٣.

ولا بد من معرفة أن الحلق والتقصير لا يكونان في منى وحسب، بل وكما قال هشام الكلبى: " كانت الأوس والخزرج ومن يأخذ بأخذهم من عرب أهل يثرب وغيرها يحجون، فيقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يخلقون رؤوسهم. فإذا نفرأ أتوه [مناة]. فحلّقوا رؤوسهم عنده وأقاموا ولا يرون لحجهم، تماماً إلا بذلك " ٣٤.

الفوارق والامتيازات:

إذا تمعنا في مراسم الحجّ الجاهلي من خلال التاريخ والأدب المدوّنين، وجدنا ثمّة فوارق ناشئة عن شعور بعض القبائل بالفضل علي سواها. وتتمثل هذه الفوارق قبل كل شيء في طريقة أداء حجّ المشركين، الذي فقد طابعه الديني ووحده، بسبب تأثير النزعة الاستعلائية للقبائل القوية.

وكان الحجاج في الجاهلية علي ثلاثة أقسام: ١- الحُمس. ٢- الجلّة. ٣- الطُّلس. ١- الحُمس: كان القرشيون يرون لأنفسهم الأفضلية علي سائر العرب، ولمجاورتهم مكّة كانوا يقولون: " نحن أهل الحرم، فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرم، ولا نعظم غيرها كما نعظمها، نحن الحُمس " ٣٥.

يتبين من هذا المقطع أن امتياز الحُمس كان مختصاً بسكّان الحرم من قريش، فقد جاء في كتاب المحبر أن الحُمس يطلق علي " قريش كلّها، وخزاعة لنزولها مكّة، ومجاورتها قريشاً " ٣٦.

وقد ذُكر وجهان في المعني اللغوي لكلمة الحُمس، إذ ورد أن: " الحُمس جمع أحمس وحِمس، من حَمس: أي، اشتدَّ وصلبَ في الدين والقتال، وقيل: إنهم لقبوا بذلك لالتجائهم بالحُمساء، وهي الكعبة، لأن حَجَرها أبيض إلي السواد " ٣٧.

وما أوجده الحُمس في الحجّ هو ترك الوقوف في عرفة والإفاضة منها إلي المزدلفة، فهم في الوقت الذي يقرون فيه بهذه المناسك، يقولون: نحن أهل الحرم لا ينبغي لنا الخروج من الحرم وتعظيم غيره؛ وعندما يقف الحجاج في عرفة، يقفون هم عند أطراف الحرم ثم يذهبون ليلاً إلي المزدلفة.

وقد ظل هذا الأمر حتي ظهور الاسلام، إذ أُلغته الآية ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس. . ٣٨ .

ومن جملة الأعمال التي كان علي قريش القيام بها رعاية للحُمس هو أنهم: "لم يطبخوا إقطاً، ولم يدخروا لبناً، ولم يحولوا بين مرضعة ورضاعها حتي يعافه، ولم يحركوا شعراً ولا ظفراً، ولا يبتنون في حجهم شعراً ولا برأ ولا صوفاً ولا قطناً، ولا يأكلون لحماً، ولا يمسون دهنًا، ولا يلبسون إلا جديداً، ولا يطوفون بالبيت إلا في حذائهم وثيابهم، ولا يمسون المسجد بأقدامهم تعظيماً لبقعته، ولا يدخلون البيوت من أبوابها. " ٣٩.

وقد أشار القرآن إلي هذا الأمر، ونهي عنه في الآية وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر من اتقى، واتوا البيوت من أبوابها. . ٤٠.

ومن تقاليد الحُمس الأخرى قولهم، إنه لا يليق بغير أهل الحرم أن يتناولوا طعام غير الحرم في الحرم، بل عليهم إذا جاءوا للحجّ أو العمرة أن يأكلوا من طعام أهل الحرم إما من خلال الضيافة أو الشراء ٤١.

ت بلباس أهل

الحرم، أي الحُمس، وإن لم يجد ذلك طاف عريان ٤٢. □
كذلك إذا تزوج رجل من نسائهم فإن أولاده يكونون من الحُمس، ولهذا الأمر بواعث سياسية واقتصادية أيضاً، وقد تفاخر بعض شعراء الجاهلية بذلك.

٢- الحلة: وهم قبائل سكنوا خارج الحرم، أي في الحل، وعرفوا بالحلة، وكان الفرق بين أهل الحل وأهل الحرم في أن أهل الحل كانوا في أيام الحج يذيون السمن، ويأكلون الإقط واللحم، ويضعون الزيت علي أجسامهم، ويلبسون من الصوف والشعر، ويقيمون في الخيام، ويؤدون المناسك بثيابهم، وبعد الفراغ وعندما يدخلون الكعبة يتصدقون بنعلهم وثيابهم، ويستأجرون للطواف الثياب من أهل الحُمس ٤٣.

٣- الطُّلُس: قيل إنَّهم اليمينيون من أهل حضرموت وعكَّ وعجيب وإياد بن نزار، والوجه في تسميتهم هو مجيئهم من مناطق بعيدة وبالتالي طوافهم بالبيت وقد غطاهم الغبار ٤٤. وكان هؤلاء يماثلون الحلة في الإحرام، والحمس في ارتداء الثياب ودخول البيت ٤٥. العمرة:

يأتي أهل الجاهلية من الحُمس والحلة والطُّلُس إلي الكعبة لغير الحجِّ أيضاً وذلك لأداء العمرة، وكانوا يمتنعون عن التلبيد ويحلقون سلفاً خلافاً لما كانوا يفعلونه في الحج، ويعدون أداء العمرة في أشهر الحج، ذي القعدة وذي الحجة ومحرم، من الذنوب التي لا تغتفر، فهم يقولون:

"إذا برأ الدبر وعفا الوبر، ودخل صفر، حلت العمرة لمن اعتمر" ٤٦. ولا فرق بين العمرة والحج من حيث الاحرام والطواف، بيد أنها لا تتضمن الوقوف في عرفة والمزدلفة ومنى، ورمي الجمرات. السقاية والرفادة:

لوقوع مكة في وادٍ غير ذي زرع، ولشحة المياه فيها، فإن سعي القرشيين الرئيس في أيام الحج كان منصباً علي توفير الماء للحجيج، وقد سمي هذا العمل بالسقاية. وقيل إن أول من سقى الحجيج هو قصي.

والمشكلة الثانية في هذه الايام بعد إيصال الماء هي الإطعام، وقد سمي هذا العمل بالرفادة. وقيل إن أول من قام به هو قصي أيضاً ٤٧.

وقد بقي هذا العمل لأولاد قصي، إذ تكفل به من بعده هاشم بن عبد مناف، ثم ابنه عبدالمطلب، ثم أبوطالب الذي عصر ظهور الاسلام.

وقد شارك في هذا العمل أشخاص آخرون من غير هذه الاسرة، مثل عدي بن نوفل الذي عاصر عبدالمطلب، وكان يسقى الحجيج في الصفا والمروة لبناً وعسلاً ٤٨. الطواف والتلبية:

إن ما يسترعي الاهتمام وتوضح فيه هوية الحجِّ الجاهلي الحقيقية، هو محتوى التلبيات وارتباطها بالأصنام، إذ لم يكن من حجهم بكل مظاهره غير حركات عابثة وأفعال لا معني لها.

حطم الأصنام،

وأدت الغفلة عنها، والغربة عن أسرارها ورموزها، وعدم فراغ القلب من سوي المطلوب، والدوران دون حضور القلب، إلي الخسران.

والأهم من كل ذلك هو الربط بين تلك الرموز والشعائر، في تلك المواقف والمناسك، وبين العالم الخارجي الذي سيواجهه الحاج في الحج الإبراهيمي، العالم الذي يجب أن يحياه ديناً وقلباً ودينياً وفق نهج إبراهيم (عليه السلام) ومحمد (صلي الله عليه وآله وسلّم) أي وفق الاسلام، وبالجمع بين هذه الثلاثة يكون قد سلك النهج الذي أطلقه الخليل (عليه السلام) والحبيب (صلي الله عليه وآله وسلّم).

كان حج المشركين حجاً جاهلياً، إذ كانوا يتوجهون بعد وصولهم مكة إلي الأصنام يظهرون لها خضوعهم، وفي عرفة والمزدلفة ومنى كانوا دائماً بذكرها أو بجوارها، ففي منى وضعت سبعة أصنام بالقرب من الجمرات الثلاث ليعظمها الحجيج بعدها، وكان مكان الأضاحي (الهدى) في منى مليئاً بالانصاب إذ كان المشركون يمسحونها بدماء الأضاحي.

جاء في سيرة ابن هشام نقلاً عن معاوية بن زهير:
فأقسم بالذي قد كان ربيوانصاب لدي الجمرات مغير ٤٩

وبعد انتهاء الحج كانوا ينشرون لباس الاحرام حول الأصنام.

إنَّ ما يتحصّل من الأشعار والآثار الجاهلية والباقية، هو أن أداء المناسك كان يترافق مع التلبية بصوت عال، وتجدر الإشارة إلي أنه لم يكن ثمة وجود للتلبية المختصة بحج إبراهيم (عليه السلام) والتي مفادها: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك. ، بل إنهم غيروا التلبية لتتوافق مع عقيدة الشرك لديهم، إذ كانت كالآتي:

لبيك اللهم لبيك! لبيك لا شريك لك! إلا شريك هو لك! تملكه وما ملك! ٥٠!

ويظهر في هذه التلبية الاعتقاد بالشريك، وقد كشف القرآن الكريم عن عقيدتهم المشتركة في قوله تعالى: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ٥١ .

وقد اعتبر ابن الكلبي أن هذه التلبية مختصة بنزار، بينما رأى ابن اسحاق وابن حبيب أنها مختصة بقريش، وقال الأزرقى: إنها متعلقة بكل المشركين، ومما لا شك فيه أن التلبية التي يؤديها أهل الحرم يمكن أدائها من قبل أهل الحل.

ونقل اليعقوبي والأزرقى، أن كل قبيلة كانت أثناء الحج تهللي حول صنمها حتي تصل مكة، "ذلك أن عباد كل صنم كانوا إذا أرادوا الحج، إنطلقوا إليه، وأهلوا عنده، ورفعوا أصواتهم" ٥٢، وكذلك: "إذا أرادت حج البيت وقفت كل قبيلة عند صنمها، وصلوا عنده" ٥٣.

وكان لعباد كل صنم من القبائل المختلفة تلبيات خاصة، ومن بين هذه الأصنام كان لكل من اللات والعزى ومناة وهبل وذو الخصة وذو كفين وجهار وذريح وذولبا وسعيدة وشمس ومحرق ومرحب ونسر ويعوق وود ويعوث تلبية خاصة به، وهي مذكورة في المصادر التاريخية، وقد أحجمنا عن إيرادها مراعاة للاختصار.

وعدا هذه الأصنام، كان لقبائل كنانة وثقيف وهذيل وبجيلة وجذام وعكّ وأشعر وربيعة وقيس وعيلان وبنو أسد وتميم ومذحج وهمدان وبكر بن وائل وبنو معد وبنو نمر أصنامهم، ولها تلبيات خاصة أيضاً.

وكانوا يصفقون ويصفرون لدي ترديدهم التلبية.

يمكن القول: إن الحج الجاهلي كان مزيجاً من الشرك والتفاخر القبلي، والأغراض التجارية والأهداف السياسية والقومية، لذلك سعت كل قبيلة أثناء الطواف لاستعراض مظاهر هذا المزيج غير المتجانس من خلال رفع الأصوات.

وقد عبر القرآن الكريم عن حركة المشركين هذه لدي الطواف بقوله تعالى:

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ٥٤.

وبعد مني كان المشركون يتوجهون إلي مكة إذ يبكون فيها ثلاثة أيام، تسمى بأيام التشريق، وقد ذكروا أقوالاً في وجه تسميتها: منها طبخ لحم الأضاحي بأشعة الشمس، ومنها نحر الأضاحي عند طلوع الشمس، وكانوا يهتمون بهذه الأيام لكنها لم تكن من أركان الحج الأساسية.

كان علي غير أهل الحُمس، أثناء الطواف إما أن يرتدوا ثياباً استعاروها أو استأجروها، وإما أن يطوفوا عراة، وهذا يتعلق بمن يأتي إلي الحج للمرة الأولى.

وكان أهل الحل يتركون ثيابهم يعد الطواف في محل قرب مكة، ولا يحق لهم ارتداؤها مرة أخرى، وتسمي هذه الثياب لقي ٥٥، إذ لا يمكن الاستفادة منها بسبب تعرضها لأشعة الشمس وتغيرات الجو وراثتها.

كان الطواف حول البيت، دون ثياب أمراً دارجاً وكان يطال حتي النساء.

فقد نقل أن امرأة جميلة لم تجد ثياباً فاضطرت إلي الطواف عارية، مما دفع جمعاً كثيراً إلي الاحتشاد لمشاهدتها.

ونقل أيضاً أن بعض المشركين كانوا ينتهزون هذه الأيام، فيتحلقون حول الكعبة لرؤية هكذا مشاهد، وكان خفاف بن ندبة يسعي لرؤية عشيقته، وكما قال فانه استطاع ان يراها عارية في هذه الأيام، إذ جاء عنه:

وأبدي شهور الحج منها محاسناً ووجهها متني يحلل له الطبيب يُشرق ٥٦

ويجب البحث عن جذور هذا الطواف في مصالح الحُمس الذين سعوا عبر إيجار الثياب ولمرة واحدة، أن يضمنوا لأنفسهم مصدراً مالياً، وكان أهل الحل في بعض الأحيان لا يستجيبون لهذا الأمر، إذ كانوا فقراء معدمين من جهة، وكانوا يرفضون الخضوع لامتياز قريش وقراراتها الاستغلالية من جهة ثانية، ولما كان الغرض من الحج ترسيخ التقاليد القبلية والجاهلية، فقد كانوا مستعدين لأن تطوف حتى نساؤهم عاريات.

وحسبما نقل ابن كثير فإن الآية نزلت للحيلولة دون هذا العمل يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد. . . ٥٧.

ووضعوا إساف ونائلة قرب الكعبة، الأولي بجوارها، والأخري عند زمزم، وعلي الحاج أن يبدأ طوافه أولاً من إساف وبعد أن يستلم الحجر الأسود ويختم طوافه، يستلم الحجر الأسود مرة ثانية، وبعد ذلك ينتهي طوافه باستلام نائلة.

وحسب تقاليد المشركين لم يكن طواف الحج والعمرة تعبيراً دائماً، إنّما كان أحياناً للتعبير عن الغضب والثبّر وإشهاد البيت عليّ ظلم الأعداء.

" نقل أن أبا جندب بن مرة القردي كان له جار من خُزاعة اسمه خاطم، فقتله زهير اللحياني وقتلوا امرأته، فلما برأ أبو جندب من مرضه خرج من أهله حتى قدم مكة، فاستلم الركن وكشف عن إسته وطاف، فعرف الناس أنه يريد شراً " ٥٨.

كان السعي بين الصفا والمروة جزءاً من الطواف عند الحمس وربما عند غيرهم، ولكن لم يؤده جميع المشركين.

وكان السعي بين الصفا والمروة من شعائر الخليل (عليه السلام) إلا أنه ترك ومسوخ، وبعد ظهور الإسلام وفتح مكة أمر رسول الله (صلي الله عليه وآله وسلم) بإدائه إذ قال تعالى: إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما. . . ٥٩.

الهوامش:

(١) الوثنية في الأدب الجاهل، الدكتور عبد الغني زيتوني: ٢٧٣.

(٢) الحج: ٢٦-٢٧.

(٣) تاريخ العرب قبل العروبة الصريحة في جزيرة العرب، محمد عزة دروزة: ١١٥-١١٦.

(٤) P ١٠٥. Booth, the historical library of diodorus the sicilian

(٥) تاريخ العرب في الاسلام: ٤٥ - ٤٧.

(٦) نفس المصدر: ٤٧ - ٤٨.

(٧) تاريخ الجاهلية، الدكتور عمر فروخ: ١٠٩.

(٨) الشبوري: ٧.

(٩) محمد: ١٣.

(١٠) الزخرف: ٣١.

(١١) Encyclopaedia of religion and ethics, by Hasting Vol ٨, P. ٥١١.

(١٢) مروج الذهب ١٦٤: ٢.

(١٣) تاريخ العرب في الاسلام: ٤٨ - ٤٩.

(١٤) القبرة: ١٢٤.

(١٥) كتاب الاصنام، ابو منذر هشام بن محمد الكلبي: ٦.

(١٦) نفس المصدر.

(١٧) نفس المصدر.

- (١٨) الوثنية في الادب الجاهلي: ٢٨٢ - ٢٨٤ واسواق العرب في الجاهلية والاسلام، سعيد الافغاني: ٢٤٩ - ٢٥٠.
- (١٩) البيان والتبيين، الجاحظ ٩٥: ٣.
- (٢٠) ديوان امية بن ابي الصلت: الدكتور عبد الحفيظ السطلي: ٥١٨.
- (٢١) في طريق الميثولوجيا عند العرب، محمد سليم الحوت: ١٥٠.
- (٢٢) معجم البلدان ١١٧: ٤.
- (٢٣) Encyc lopaedia of islam vol ٣, P٣ .. ٣٢
- (٢٤) الوثنية في الادب العربي: ٢٨٧.
- (٢٥) نفس المصدر: ٢٨٩.
- (٢٦) السيرة النبوية لابن هشام ١١٩: ١.
- (٢٧) صحيح البخاري ٢٠١: ٤.
- (٢٨) اخبار مكة ١٥٤: ٢.
- (٢٩) الوثنية في الادب الجاهلي: ٢٩٣.
- (٣٠) السيرة النبوية لابن هشام ١٢٠: ١.
- (٣١) المفضليات، الضبي: ١١١.
- (٣٢) معجم الشعراء، المرزباني: ٢٩٤.
- (٣٣) تاريخ العروس ٤٨٦: ٣.
- (٣٤) كتاب الاصنام: ١٤.
- (٣٥) السيرة النبوية لابن هشام ١٩٩: ١.
- (٣٦) المحبر، ابن حبيب: ١٧٨.
- (٣٧) القاموس المحيط، مادة حمس.
- (٣٨) البقرة: ١٩٩.
- (٣٩) المحبر: ١٨٠ والسيرة النبوية لابن هشام ٢٠٢: ١.
- (٤٠) البقرة: ١٨٩.
- (٤١) الوثنية في الأدب الجاهلي: ٣٠٤ - ٣٠٥.
- (٤٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢٠٢: ١.
- (٤٣) المحبر: ١٨٠.
- (٤٤) الوثنية في الأدب الجاهلي: ٣٠٨.
- (٤٥) المحبر: ١٨١.
- (٤٦) صحيح البخاري ١٧٠: ٢ - ١٧٥.
- (٤٧) الوثنية في الادب الجاهلي: ٣١٣، نقلاً عن اخبار مكة.
- (٤٨) نفس المصدر: ٣١٥.
- (٤٩) نفس المصدر: ٣١٩ و the life of muhammad, A. H. SIDDIGHI p ٣١.
- (٥٠) كتاب الاصنام: ٧.
- (٥١) يوسف: ١٠٦.
- (٥٢) اخبار مكة، الازرقى ٧٥: ١.
- (٥٣) تاريخ اليعقوبي ٢٩٦: ١.
- (٥٤) الانفال: ٣٥.
- (٥٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢٠٢: ١.
- (٥٦) الوثنية في الادب العربي ٢٣٩ - ٢٤٠.
- (٥٧) الاعراف: ٣٠.

(٥٨) خزنة الأدب، البغدادي ٢٩٢:١.

(٥٩) البقرة: ١٥٨.

المصادر

أخبار مكة، الأزرقى (مكة مكرّمة، الماجدية، ١٣٥٢).

أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، سعيد الأفغاني (دمشق، ١٩٢٧).

البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون (بيروت، دار الفكر، ١٤١٠).

تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن مرتضى الزبيدي (بيروت، دار مكتبة الحياة، بدون تاريخ).

تاريخ الجاهلية، الدكتور عمر فروخ (بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٤).

تاريخ العرب في الإسلام، الدكتور جواد علي (بيروت، دار الحديث، ١٩٨٤).

تاريخ العرب قبل العروبة الصريحة في جزيرة العرب، محمد عزة دروزة (صيدا، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٣٧٦).

تاريخ اليعقوبي، ابن واضح اليعقوبي (بيروت، دار العراق، ١٩٠٠).

خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق وشرح، عبدالسلام محمد هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٠٩).

ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق ودراسة، الدكتور عبد الحفيظ السطلي (دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٧٧).

السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق، مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي (القاهرة، البابي الحلبي، ١٩٥٥).

صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل (القاهرة، مطابع دار الشعب، ١٣٧٨).

في طريق الميثولوجيا عند العرب، محمود سليم الحوت (بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٨٣).

القاموس المحيط، الفيروز آبادي (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦).

كتاب الأصنام، أبو منذر هشام بن محمد الكلبي، تحقيق، أحمد زكي باشا (القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٤).

المحبر، أبو جعفر محمد بن حبيب، تصحيح، الدكتورة إيلزه ليختن شتيتير (بيروت، دار الآفاق الجديدة، بدون تاريخ).

مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، تحقيق وتصحيح، شارل بلا (بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٥).

معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي (بيروت دار الكتب العلمية، ١٤١٠).

معجم الشعراء، المرزباني، أبو عبيدالله محمد بن عمران، تحقيق، عبد الستار أحمد فراج (دمشق، مكتبة النوري، بدون تاريخ).

المفضليات، المفصل الضبي، تحقيق وشرح، أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون (القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦).

الوثنية في الأدب العربي، الدكتور عبد الغني زيتوني (دمشق، وزارة الثقافة ١٩٨٧).

(Encyclopaedia of Islam) Leiden, E. j. Brill ١٩٨٦)

(T. Clark & .Encyclopaedia, of religion and ethics by James Hasting) Edinburgh, T ١٩٨٠)

(The life of Muhammad, AbdulHamid SiddiQui) Islamic Publication Limited Pakistan

(. ١٩٨١)

